

العمائر العباسية فى بغداد

خالد خليل حمودي

ماجستير آثار

المؤسسة العلمية للآثار والتراث

بغداد

خضعت العمارة العربية الاسلامية فى نشأتها وتطورها الى عدة عوامل من ابرزها وأشهرها :

- 1 - العوامل الدينية : التى تمثلت فى تخطيط وعمارة المساجد والمدارس والأربطة والابنية الاسلامية الاخرى، والتى انبثقت منها نظما تخطيطية لم تكن معروفة من قبل.
- 2 - العوامل الجغرافية والطبيعية للأقطار الاسلامية المتمثلة فى هدف البناية وفائدتها، كما فى بناء الخانات عند محطات القوافل التجارية، واقامة الاربطة عند حدود الدولة الاسلامية. وكذلك بالنسبة للمواد المستعملة فى البناء حيث استعمل الحجر فى الاقاليم التى تتوفر فيها مادة الطمي والطينة الجيدة كما فى العراق وايران ومصر، بينما استعملت الاحجار والصخور فى بلاد الشام والحجاز حيث تكون متوفرة هناك.
- 3 - العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد بنيت عمائر مختلفة تبعا لوضع الدولة فى حالات السلم والحرب، كبناء المدن والقصور المحصنة والاسوار والقلاع. وكذلك كانت عمائر الطبقات الغنية والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس⁽¹⁾.

اكتملت شخصية العمارة العربية الاسلامية وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي. والاثار القليلة المتبقية من الفترة العباسية فى بغداد تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة فى ذلك العصر وهى تدل على خبرة واسعة فى التخطيط والبناء وعلى مقدرة فائقة فى اختيار المادة المناسبة وحسن استعمالها، وعلى براعة فى تكيف الابنية وفق الظروف المناخية، والى جانب ذلك تدل على نوق رفيع فى زخرفة العمائر، وعلى مهارة فى ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية وابتكارها. وهى بذلك تدعونا الى الاعتزاز بتراثنا الحضاري واستلهاهم الافكار منه. وهكذا اصبح ضروريا العناية بما وصل الينا من هذه العمائر وبذل الجهود الكبيرة فى سبيل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بأحدث الطرق والاساليب العلمية والتى تكفل محافظتها على حالتها الاصلية.

ان اقدم العمائر المتبقية فى بغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقى منها المعروف باسم « باب الظفرية » حيث يرجع بناء هذا السور الى عهد الخليفة المسترشد بالله (512 -

529 هجرية = 1118 - 1135 ميلادية)⁽²⁾. ويتكون هذا المدخل من برج ضخّم اسطوانى الشكل تقريباً يحيط به خندق أقيمت عليه قنطرة كبيرة مرتفعة قوامها فتحتان كل منهما تطل على الخارج بعقد مدبب كبير وباطنها بشكل قبو بنصف اسطوانى الشكل، بحيث تؤلف هذه القنطرة ممراً واسعاً يقوم على جانبيه جدار مرتفع فتحت فيه مزاغل للرمى. وهذه القنطرة هى التى تربط المدينة بالبرج المذكور حيث يوجد باب يؤدى الى داخل البرج. وتوجد قنطرة اخرى مماثلة تربط البرج بخارج المدينة على أنها لم تكن متضمنة جداراً على جانبي الممر. واهمية هذا المدخل تكمن فى كونه يمثل نموذجاً للمداخل المنحنية التى يجب على من يجتازها ان ينحرف نحو جهة اليسار ليدخل من بابها. وهذا يذكرنا بابواب مدينة المنصور المدورة التى كانت على هذا النحو. ولم يكن يراعى فى هذا المدخل الاهتمام بتحصينه فقط باعتباره من الابنية العسكرية الدفاعية، ولكنه اضيفت اليه الزخارف والكتابات التذكارية، اذ ما يزال يحتفظ بواجهة تطل على المدينة تزيناها زخارف هندسية قوامها نجوم ومضلعات تتكون من تقاطع وتداخل اشربة مزدوجة وتزين بواطنها جميعاً عناصر زخرفية نباتية. اما الكتابات التذكارية فكانت تحيط بالبرج من الخارج على شكل سطر مكتوب بخط الثلث. ولم يبق منه اليوم سوى بعض العبارات الاخيرة منه. هذا وقد قامت دائرة الآثار بصيانة هذه البناية واتخذ فترة من الوقت متحفاً للأسلحة. وما تزال اعمال الصيانة جارية وبشكل واسع من اجل ابراز هذا الأثر المهم واعادته الى الشكل الذى كان عليه سابقاً خاصة وأنه يعتبر المدخل الوحيد الذى ظل قائماً الى اليوم من سور بغداد الشرقية.

ومن الآثار التى وصلتنا من العصر العباسى ثلاث مآذن كانت تابعة الى المساجد المشيدة عندها. وهذه المساجد جددت عدة مرات حتى فقدت طابعها القديم. وأقدم هذه المآذن هى مؤذنة مسجد الحطائر الذى شيد من قبل زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله وذلك قبل وفاتها فى سنة 599 هجرية (1202 ميلادية)⁽³⁾. وقد تعرض هذا المسجد الى حرائق وفيضانات نهر دجلة فى فترات متعددة، وهو قائم الى اليوم لكن بناؤه يعود الى أوائل القرن الحالى. ان مؤذنة هذا المسجد بنيت بالأجر (الطوب) وما تزال محتفظة بمعظم عناصرها العباسية. وهى تتكون من قاعدة مئمنة يعلوها بدن اسطوانى الشكل يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع القاعدة تقريباً، وتأتى فوق هذا البدن منطقة المقرنصات الحاملة لشرفة الأذان (موضع وقوف المؤذن). وهذه المقرنصات تتألف من طبقتين أو صفيين، وقوامها تجاويف وحنايا تتعاقب مع كتل بارزة وجميعها ذات عقود مدببة متنوعة الاشكال والاحجام، بحيث تبرز نحو خارج بدن المؤذنة لكى تكون موضعاً لوقوف المؤذن وهو بشكل اسطوانى ايضا يحيط به جدار غير مرتفع. وفوق هذه المنطقة يرتفع الجزء الأعلى منها وهو ما يمكننا ان نطلق عليه عنق المؤذنة وهو ايضا اسطوانى الشكل لكنه يقل فى قطره وطوله بالنسبة الى البدن. وتنتهى المؤذنة فى اعلاها بقمة تشبه قبة صغيرة مدببة (بصلية الشكل). ان ابرز مميزات هذه المؤذنة هو جمال شكلها المتمثل فى تناسق اقسامها وأجزائها مما تجعل الناظر اليها يقف متأملاً روعة النسب بين أجزائها والاسلوب البديع للانتقال من قطر البدن الى قطر أوسع منه يساعد على ايجاد مكان يتسع لوقوف المؤذن فيه. وكذلك تميزت هذه المؤذنة فى بنائها بالبساطة وعدم الاسراف بالزخارف

والنقوش. ومن هنا تركت هذه المئذنة أثرا بالغا في طراز المآذن البغدادية المشيدة بعدها وإلى الوقت الحاضر.

والمئذنة الثانية المتبقية من العصر العباسي هي مئذنة مسجد الحنائز (المعروف حاليا جامع الشيخ معروف الكرخي). وكان هذا المسجد قد جدد عدة مرات كان آخرها في مطلع القرن الحالي. ورغم تعرض هذه المئذنة الى بعض اعمال الترميم الا انها احتفظت بعناصرها وشكلها الاصلى منذ تشييدها في سنة 612 هجرية (1215) ميلادية وهو التاريخ المدون في كل الكتابة التي ما تزال موجودة عليها. وهذه المئذنة تشبه سابقتها في شكلها العام مع اختلاف قليل في نوع المقرنصات التي تحمل شرفة الأذان زينت هنا بعناصر زخرفية نباتية ورتبت المقرنصات بحيث تؤلف في اعلاها ما يشبه انصاف نجوم ثمانية يراها الناظر اليها من الاسفل.

والمئذنة الثالثة التي ما تزال قائمة ببغداد منذ تشييدها في العصر العباسي هي مئذنة مسجد قمريه الذي بنى على الضفة الغربية لنهر دجلة وذلك من قبل الخليفة المستنصر بالله في سنة 626 هجرية (1228 ميلادية)⁽⁴⁾ وقد زالت عمارة المسجد الاصلى بسبب تجديده عدة مرات كان آخرها في اوائل القرن التاسع عشر الميلادي وجرى اصلاحه وترميمه في الآونة الاخيرة. وتمتاز هذه المئذنة باختلاف شكلها عن المئذنتين السابقتين فهي تقوم على قاعدة مربعة غير مرتفعة يقوم فوقها بدن اسطوانى ضخم ينتهى بسلسلة من عقود صغيرة تحيط به وتحمل شرفة المؤذن ويخرج من هذه الشرفة عنق المئذنة الذي يبدو للناظر صغيرا ونحيفا بالنسبة للبدن. وقد اجريت بعض اعمال الصيانة في شرفة الأذان وكذلك في زخارف البدن.

ومن الابنية التي اشتهرت في العصر العباسي وخاصة خلال فترة نفوذ السلاجقة (المشهد) الذي يقام عند قبور الاولياء والعلماء وذوي النفوذ والسلطان من الاشخاص وما يزال قائما في بغداد واحد منها هو المشهد المنسوب للسيدة زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله. وقد تداول عامة الناس تسمية المشهد بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد لكن المناقشات والابحاث لا تؤيد هذا القول استنادا الى الادلة التاريخية والاثرية وكذلك استنادا الى عناصر البنيان وشكله⁽⁵⁾.

تتكون هذه البناية من حجرة صغيرة مثمثة الاضلاع ذات جدران ضخمة. يقع مدخلها في الضلع الشمالى الشرقى، وفي وسط الحجرة ضريح كانت عليه لوحة حجرية (شاهد قبر) عليه كتابة حديثة الخط تذكر اسم الست زبيدة زوجة هارون الرشيد. وفوق الحجرة المثمثة المذكورة تقوم قبة مخروطية الشكل مقرنصة ارتفاعها يصل الى حوالى (13 مترا) وتؤلف في بدايتها من الاسفل شكلا نجميا من ستة عشر رأسا يتناقص تدريجيا كلما ارتفع الى اعلى حتى ينتهى بقمة على شكل قبة صغيرة مضلعة الشكل. ويلاحظ في البناء انه بنى بالآجر وتغطى طبقة من الجص الجدران والاجزاء الداخلية من البناية بينما تغطى طبقة الجص القبة المقرنصة فقط من الخارج. أما الجدران الخارجية للحجرة فانها مزينة بعقود مدببة داخل مساحات وسطوح مزخرفة بزخارف من الآجر مصنوعة بواسطة التلاعب في اوضاعه أو نحته وتقطيعه أو حفر

النقوش عليه. هذا وقد اجريت اعمال صيانة على هذه البناية فى فترات متفرقة استهدفت ترميم الجدران والزخارف وتقوية قاعدتها.

وتوجد فى بغداد بناية تعرف اليوم بالقصر العباسى وتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة. ورغم ان هذه البناية تعتبر من روائع التراث العربى الاسلامى فى العمارة والزخرفة، الا ان حقيقتها يكتنفها الغموض مما جعلها مدار نقاش بين الباحثين، فمنهم يرى انها هى « دار المسناة » التى بناها الخليفة الناصر لدين الله سنة 576 - 580 هجرية (1180 - 1184 ميلادية) استنادا الى الروايات التاريخية. ويرى البعض الآخر انها « المدرسة الشرايية » التى بنيت فى حدود سنة 628 هجرية (1230 ميلادية)⁽⁶⁾ وهو الرأي الذى يعتمد على التشابه الكبير بين هذه البناية وبناية المدرسة المستنصرية والمدارس العباسية عموما من حيث التخطيط والشكل العام الى جانب الشواهد التاريخية التى تعززه. ورغم عدم العثور على نص صريح يثبت طبيعة هذه البناية الا ان القول بأنها مدرسة يكاد يكون اقرب الى الحقيقة. تتألف هذه البناية من ساحة مكشوفة (صحن) مربعة الشكل تحيط بها حجرات فوقها غرف صغيرة تطل جميعها على الساحة المذكورة ويتقدمها رواق تزين بواطنه مقرنصات على جانب كبير من الانتقان والابداع، ويطل الرواق على الساحة بواجهة على شكل عقود مدببة مزخرفة. وفى الجهة الشمالية الشرقية من البناية يقوم ايوان كبير تزين سقفه الزخارف الهندسية والبناية ويطل على الساحة بواجهة شاهقة مزخرفة. وفى الجهة القبلىة يوجد مسجد صغير مستطيل الشكل وفى هذا الجانب والى جنوب المسجد المذكور فتح مدخل البناية الذى يتألف من واجهة مرتفعة ويؤدي الى ممر أفقى، أحد طرفيه يؤدي الى الساحة، والطرف الآخر يؤدي الى ممر يتصل برواق مرتفع السقف يتقدم قاعات كبيرة لعلها كانت للدراسة.

لقد تعرضت هذه البناية الى الاهمال والتخريب والتشويه حيث تهدمت بعض اجزائها الشمالية ومسجدها ومدخلها، وبعد ان وضعت دائرة الآثار يدها على هذه البناية بدأت باعمال الترميم والصيانة التى تضمنت استظهار الأسس المندثرة ثم اعادة الاجزاء المتهدمة وكذلك ازالة الابنية والاجزاء الحديثة المضافة للبناية وصيانة واعادة الزخارف على هدى ما بقى منها سالما. ورغم ان العمل فى ذلك استغرق سنين طويلة وفترات متقطعة الا انه اشرف حاليا على الانتهاء.

ان هذه البناية حافلة بالزخارف المصنوعة من الآجر والتى تعتمد على تقطيعه بأشكال هندسية وحفر الزخارف على سطحه، والتى ظهرت بينها الاشكال الهندسية والعناصر النباتية، ذات الطابع الفنى المميز، ويمكننا ان نلمس خلالها الزخرفة النباتية المعروفة بزخرفة التوريق العربى التى يسميها بعض الباحثين (الارابيسك ARABESQUE). ولعل اروع ما نجده فى هذه البناية هو عنصر المقرنصات التى تضافى على البناء بهجة وجمالا. وهى تتكون من قطع من الآجر تؤلف فى مجموعها طبقات من حنايا وكنل بارزة ذات عقود مدببة تتدرج فتنتهى فى مراكز تشبه قبة صغيرة أو نصف قبة مضلعة، واحيانا تنتهى بشكل نجمة ذات ثمانية رؤوس. كما وزينت بواطن تلك المقرنصات بزخارف نباتية التى رغم تكرارها فانها لم تقلل من شأنها ولم تؤثر على القيمة الفنية لهذا الانجاز العظيم.

وأشهر الابنية العباسية القائمة الى الآن فى بغداد هى المدرسة المستنصرية الواقعة على الضفة الشرقية من نهر دجلة، وقد شيدت هذه المدرسة من قبل الخليفة العباسى المستنصر بالله فى سنة 625 هجرية (1227 ميلادية) وتكامل بناؤها بعد ذلك بستة اعوام، وقد ذكرنا كثير من المؤرخين والرحالة الذين اعجبوا ببنائها ونقوشها⁽⁷⁾، حيث ما تزال قائمة تشهد على عظمة العمارة العباسية وروعة الزخارف المعروفة آنذاك. ورغم ان المستنصرية كانت تحظى على الدوام برعاية وعناية الحكام واستمرت تؤدي وظيفتها حتى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، الا ان عوادي الزمن والظروف السياسية التى مر بها العراق قد اثرت عليها فاصبحت تكية للصفوف فى القرن الحادي عشر الهجري، ثم تحولت الى خان فى مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وفى اواسط القرن الثالث عشر الهجري اصبحت مخزنا للكمرك حيث استمر ذلك حتى سنة 1945 عندما بدأت دائرة الآثار بترميمها وإعادة الاجزاء المهتمة منها وصيانة ما بقى من زخارف. فى الآونة الاخيرة بدأت المؤسسة العامة للآثار ببذل جهود كبيرة من اجل ابراز معالم هذه البناية المهمة وازالة كل ما يتصل بها من ابنية حديثة واجراء اعمال صيانة وترميم شاملة بالطرق الفنية وبالاسلوب العلمى من اجل المحافظة عليها.

تتكون بناية هذه المدرسة من ساحة وسطية مستطيلة الشكل، واسعة مكشوفة، يقع فى الجهة الشرقية منها مدخل البناية الذي ترتفع واجهته عن مستوى سطح البناية كما وتبرز الى الخارج بالنسبة للجدران الخارجية. ومن الداخل يبدو هذا المدخل على شكل ايوان كبير مرتفع سقفه بشكل قبة مدبب ويطل على الساحة المكشوفة بواجهة ذات عقد مدبب كبير يقوم على عمودين ملتصقين بالجدار. وفى الجهة الشمالية من الساحة المذكورة يوجد ايوان كبير مرتفع يقابله فى الجهة الجنوبية ايوان مماثل له، ويقع فى جهة القبلة مسجد المدرسة الذي يتكون من رواق واحد ويطل على الصحن بواجهة ذات ثلاث فتحات. اما المسافات بين الاواوين والمدخل والمسجد فقد تضمنت حجرات فى الطابق الاسفل وفوقها غرف فى الطابق الاعلى يتقدمها ممر صغير يطل على الصحن. وهذه الحجرات والغرف صغيرة معظمها ليست فيها شبابيك سوى بعضها الذي يطل على نهر دجلة. وفى الجهة الجنوبية وخلف الايوان الجنوبي والحجرات والغرف الموجودة هناك يوجد رواق ضيق مرتفع له سقف فيه فتحات للتهوية والاضاءة يتقدم قاعات كبيرة ذات احجام متفاوتة ولها أسقف متباينة على شكل اقبية مختلفة فتحت فيها فتحات للضوء والهواء. ومن الخارج يقع خلف الايوان الشمالى دار القرآن التى بقى فيها ايوانها فقط الذي يماثل الاواوين المذكورة. كما كان يوجد أمام مدخل البناية ايوان الحاعات المشهورة لكنه زالت معالمه ولم يعثر عليه. واذا كانت هذه البناية تدل على براعة المعمار وخبرته ومهارته، فانها تضم زخارف هندسية ونباتية وكتابات ما يجعلها سجلا للعناصر الزخرفية السائدة فى العصر العباسى الاخير.

التخطيط العام للأبنية :

ان هذه الامثلة القليلة القائمة ببغداد تمدنا بكثير من الخصائص الفنية للعمارة العباسية، كما

ان التراث الزخرفى البغدادي اصبح مصدر الهام للفنانين وانتشر فى تلك الفترة التاريخية والفترات اللاحقة لها بل بقى قيد الاستعمال حتى وقت قريب.

ان تخطيط الابنية والعمائر العباسية يمكننا ان نميز بعض خصائصه المهمة على ضوء الامثلة القائمة التى سبق الكلام عنها. فمدخل سور المدينة المنحنى الشكل والمتمثل فى البرج الضخم المحاط بالخندق والمتصل من جهة بالمدينة ومن جهة بخارج المدينة، وذلك بواسطة استعمال قنطرتين فوق الخندق، يعتبر خير ذكرى لمدخل بغداد المدورة التى اقامها الخليفة المنصور. واقامة المدخل فى السور على هذا النحو يجعله محصنا لا يستطيع العدو اقتحامه بسهولة فهو يكشف جانبه الايمن عندما يروم الاقتحام فيتعرض لرمية المدافعين الموجودين فى سطح البرج المرتفع كما يتعرض لرمية المدافعين الموجودين فى جانبي القنطرة المتصلة بالمدينة والمدافعين الموجودين فوق السور المحيط بالمدينة. فاذا اجتاز كل ذلك فانه سيصل الى باب مغلق باحكام، حتى اذا ما استطاع فتح هذا الباب يصل الى عائق آخر وهو حجرة مضلعة يقف فيها مدافعون داخل حنايا مخصصة لهم، ثم تأتى باب آخر يؤدي الى القنطرة الموصلة للمدينة وهنا يوجد على الجانبين حنايا ذات عقود كبيرة يقف فيها المدافعون كما توجد حنايا اخرى وممر فوق تلك الحنايا السفلى حيث يقف هنا مدافعون كذلك. وهكذا يتميز هذا المدخل بالتحصين المنيع واحكام البناء.

اما المآذن فان التخطيط العام لها والمتضح من خلال الامثلة المتبقية منها، نجده يقوم على مزايا عامة هى بناء قاعدة مربعة أو مضلعة ينتصب فوقها بدن اسطوانى الشكل ينتهى بمنطقة ذات مقرنصات ترفع الشرفة التى يقف فيها المؤذن حيث يخترق البدن سلم حلزوني يوصل الى تلك الشرفة، ثم يقوم فوق الشرفة عنق المئذنة وهو اسطوانى الشكل لكنه اقل سعة فى قطره من قطر البدن، ثم تنتهى المئذنة فى اعلاها بما يشبه قبة صغيرة مدببة. وقد روعى تناسب الاجزاء المذكورة تناسبا ينم على ذوق رفيع. فالقاعدة لا ترتفع كثيرا فتبرز عن سطح البناء، ونسبة طول العنق الى طول البدن هى (3/2) تقريبا. وهكذا تميزت مآذن بغداد عموما بشكلها الاسطوانى المتناسق الاجزاء، وغلب على عمارتها طابع البساطة والهدوء فى التخطيط والمظهر العام.

وابنية المشاهد والقباب المقامة فوق الاضرحة فان المثال الوحيد عنها يتميز باقامة حجرة مضلعة فتح مدخلها فى احد الاضلاع وبنى فوقها قبة مخروطية مقرنصة من الخارج والداخل تتدرج على شكل طبقات كلما ارتفعت الى اعلى. وهكذا نجد ان بناء هذا النوع من القباب يجعلها ترتفع اكثر من سواها فى الفضاء رغم ان مساحة الحجرة صغيرة بالنسبة الى ارتفاعها، وهذا ما يجعلها متميزة بارزة شامخة فى الفضاء.

اما تخطيط المدارس فان المستنصرية التى ما تزال قائمة قد تميزت بخصائص هامة فقد استعملت الساحة المكشوفة المحاطة بمرافق السكن الاخرى، حيث تكمن فائدتها فى ادخال الضوء والهواء الى كافة اجزاء البناية، كما ان اهمية هذه الساحة نجدها ايضا فى استخدامها

للصلاة ايام الجمع والاعياد حيث لا يتسع مسجد المدرسة الا الى جمع قليل من المصلين. كما اقيمت الاواوين فيها ربما للتدريس احيانا فى بعض فصول السنة أو لأستراحة الطلبة وقت فراغهم من الدروس. وتميزت كذلك هذه المدرسة بوجود رواق للتهوية يتقدم قاعات كبيرة خصصت للتدريس. اما المدخل فانه امتاز ببروزه عن البناية وارتفاعه بواجهة شاهقة.

البناء والتسقيف :

استعمل الأجر (الطوب) كمادة رئيسية فى البناء والزخرفة فى جميع عمائر بغداد عبر العصور المختلفة. ويرجع ذلك الى توفره وامكان استعماله وفقا لمتطلبات البناء وقد تطلب الامر عند اقامة العقود والاقبية جدران ضخمة نسبيا. واستخدمت العقود المدببة فى كافة المداخل والفتحات بل وحتى فى تزيين بعض الواجهات كما استخدمت احيانا عقود مفصصة. وقد ترتب عن استعمال هذين النوعين من العقود بناء اقبية من نفس النوع وذلك فى تسقيف الاواوين والحجرات. ولوحظ بناء سقوف على شكل اقبية متقاطعة روعى فيها وجود فتحات للضوء والهواء فى وسطها وهذا ما نجده فى قاعات التدريس الكبيرة كما استعين بالمقرنصات فى تسقيف بعض الممرات والاروقة.

وسائل الاضاءة والتهوية :

ان المصدر الرئيسى للضوء والهواء فى مختلف الابنية البغدادية هو الساحة الوسطية المشكوفة، وذلك لان معظم مرافق السكن التى فتحت ابوابها على هذه الساحة لم تفتح فيها نوافذ. اما بالنسبة لقاعات التدريس الكبيرة فان طبيعة انعزالها عن البناية تقريبا قد تطلب فتح نوافذ فى سقفها. وقد روعى ايجاد جو مكيف مناسب فى تلك القاعات ببناء رواق مرتفع ضيق فتحت فى اعلاه نوافذ تفتح صيفا حيث يمر الهواء من خلالها الى داخل الرواق فيصب لطيفا قبل ان يصل الى القسم الاسفل منه حيث يدخل الى القاعات والحجرات الموجودة على جانبيه. واذا كان الجدران الضخمة تعزل البناية عن الخارج وعاملا مهما فى قوة البناء، فانها ايضا ذات فائدة كبيرة فى تكييف البناية صيفا وشتاء باعتبارها عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية.

الزخارف :

اوضحت الامثلة القائمة لعمائر بغداد انها جميعها مزينة بزخارف مختلفة، نجدها فى واجهات المداخل، والواجهات الخارجية عموما، والواجهات المتمثلة بالمساحات المحيطة بفتحات الابواب والنوافذ، وكذلك فى بعض السقف المهمة كسقف الاواوين والاروقة.

واذا كان الأجر قد لعب دورا رئيسا فى البناء فانه يكاد يكون قد لعب نفس الدور فى الزخارف خاصة وانه يمتاز بسهولة تقطيعه وتهذيبه ونحته ونقش العناصر الزخرفية على سطحه.

يمكننا تميز ثلاث طرق اتبعت في تكوين الزخارف هي :

- 1 - تصنيف قطع الأجر بأوضاع مختلفة، قد يبرز في بعض الحالات عن سطح الجدار مكونا زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصير لذلك اطلق عليها الزخرفة الحصيرية.
- 2 - استخدام قطع صغيرة من الأجر ذات احجام واشكال متباينة تؤلف في مجموعها شكلا هندسيا، نراها تارة عن سطح الجدار، وتارة اخرى بمستوى سطح الجدار.
- 3 - حفر الزخارف على سطح القطع الاجرية وهذا نجده في الزخارف النباتية خصوصا حيث تحفر الفراغات بين العناصر والوحدات الزخرفية مما يترك تباينا بين الضوء والظل له أثر كبير على ابراز تلك العناصر وتجسيمها.

اما العناصر الزخرفية فأشهرها الاشكال الهندسية، والعناصر النباتية، والمقرنصات، والكتابات.

فقد احتلت الاشكال الهندسية مكانة مرموقة وتمثلت في الاطباق النجمية المتنوعة التي ظهرت فيها نجوم ذات اربعة رؤوس، وخمسة رؤوس، وستة رؤوس، وثمانية رؤوس، وعشرة رؤوس، اثنا عشر رأسا، وستة عشر رأسا. اضافة الى المضلعات الهندسية المنتظمة وغير المنتظمة. ان هذه الاشكال الهندسية تعتمد في اساسها على الدوائر واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقاطها الاشكال المطلوبة. وهي بلا شك تدل على ازدهار علم الهندسة وبراعة الفنان في اضافته حيوية على تلك الزخارف بتزيينها بالعناصر النباتية.

والزخارف النباتية استخدمت داخل الاشرطة والاطارات وبين الكتابات وفي تزيين بواطن الاشكال الهندسية. ويكاد عنصر واحد يغطي على هذه الزخارف وهو عنصر المروحة النخيلية (البالمت PALMETTE) ولكنه ظهر بأشكاله المخصصة والبسيطة. وتمتاز هذه العناصر بالتناظر والتقابل والتكرار، وتتبع نظاما خاصا في مظهرها وتكوينها وتخضع لظاهرة النمو، وهو نوع من الزخرفة اصبح مثار اهتمام الباحثين حتى اطلق عليه الاجانب اسم الزخرفة العربية (Arabesque) حيث زينت بها جميع التحف والاثار الاسلامية⁽⁸⁾.

ومن الزخارف المهمة « المقرنصات » ذلك العنصر المعماري الذي اصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك وظهر بأزهى صورة في بناية القصر العباسي. والمقرنصات تتألف من قطع من الأجر مختلفة الشكل والحجم وتتدرج في طبقات من حنايا وكتل بنائية بارزة وتنتهي بأشكال نجمية أو قبات مضلعة صغيرة وقد زينت بواطنها بزخارف نباتية مما زاد في روعة مظهرها ومهارة صنعها.

ودخلت الكتابات التذكارية في حظيرة العناصر الزخرفية عندما استخدمت في تزيين الواجهات بشكل اشربة وحقول تمتد في اعالي الجدران فوق مهد من زخارف نباتية وقد انجزت الكتابات بطريقتين : نراها تارة بحروف بارزة كبيرة كل حرف منها يتكون من عدة قطع من الأجر، وتارة اخرى ملئت الفراغات بينها بزخارف نباتية وحرفت الحروف فوق القطع الاجرية.

ان هذا الاستعراض السريع لما بقى من عمائر بغداد ومظاهرها العامة يوضح جهود المعمار والفنان في العصر العباسي، ونستدل من خلاله على خبرة ومهارة بعوامل الطبيعة المناخ وتأثيرها على الابنية، مما جعلها تؤخذ بعين الاعتبار طيلة العصور اللاحقة بل وحتى الوقت الحاضر. وفي ذلك ايضا توضيح لجانب من حضارتنا العربية الاسلامية نلمس من خلاله الحيوية والاتجاه نحو الابداع والتجديد والاتقان.

اعمال الصيانة والترميم :

ان الدعم الكبير والمستمر من قبل حكومة الثورة في العراق للمؤسسة العامة للاثار جعلها تقوم في الآونة الاخيرة بنشاط كبير في حقل صيانة وترميم العمائر الاثرية وخاصة تلك التي تعود الى العصور الاسلامية، وقد اتبع في ذلك احدث الوسائل العلمية واستخدمت الخبرة الوطنية فأثبتت جدارتها في تنفيذ هذه المهمة الملقة على عاتقها.

ان اعمال الصيانة والترميم التي اجريت على العمائر الاسلامية في بغداد كانت على مراحل وعلى انواع عديدة منها :

- 1 - ان فكرة المحافظة على البناء الاثري وبرازه كانت دافعا لازالة بعض الابنية الحديثة الملتصقة به والتي تسببت في تشويه معالمه وخراب بعض اجزائه. كما في بناية المدرسة المستنصرية.
- 2 - استدعت الضرورة احيانا اعادة اكبر قدر ممكن من البناء الاصلى الى حالته الاولى كما في بناية باب الظفريّة.
- 3 - هناك بعض الابنية مازالت محتفظة بأسس الاجزاء المهدمة منها فتقرر اعادتها الى حالتها الاصلية كما في بناية القصر العباسي.
- 4 - صيانة وترميم البناء بوضعه الحالي وتقوية الجدران وأسسها والارضية التي تقوم عليها.
- 5 - استعمل في صيانة الابنية وترميمها نفس المواد وبنفس المواصفات الاصلية مع ملاحظة استعمال المواد الصناعية الحديثة اتي تحافظ على البناء كالمواد المضادة للأملاح والرطوبة والمواد الكيماوية المستعملة ضد الحيوانات والحشرات الضارة والمواد الصناعية العازلة ضد اخطار الرطوبة وتسرب المياه الجوفية وقد استعين بالاجهزة والمكانن والآلات الحديثة في تنفيذ هذه الاعمال.

الهوامش

- (1) شافعي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) المجلد الاول، مصر (1970)، ص 731 - 292.
- (2) ابن الجوزي : المنتظم ج 9، ص 85. ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد - 1342 هـ)، ص 17. ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ايدن 1870 م) حوادث سنة 488، 517.
- (3) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس للمضخة، مجلة سومر (العراق - بغداد)، م 2 (1946)، ج 1 ص 65 - 72.
- (4) ابن الغوطي : الحوادث الجامعة (بغداد - 1351 هـ)، ص 4، 188، 396.
- (5) جواد (الدكتور مصطفى) : العمارات الاسلامية، مجلة سومر (العراق - بغداد)، م 3 (1947)، ج 1، ص 38 وما بعدها.
- (6) مديرية الآثار العامة (العراق) بقايا القصر العباسي في اقلعة ببغداد ز، مجلة سومر (العراق - بغداد)، سنة (1945)، ج 2، ص 65 - 86. معروف (الدكتور ناجي) : المدارس الشراعية (بغداد - 1965)، ص 153 - 186.
- (7) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (حيدر آباد - 1952)، ج 8، ص 739. ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء (مصر - 1309 هـ)، ص 123. ابن الغوطي : الحوادث الجامعة، ص 53. السيوطي : تاريخ الخلفاء (مصر - 1952)، ص 462.
- (8) فكري (الدكتور احمد) : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر - 1965)، ج 1، ص 176 - 190. مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز) : الفن الاسلامي - تاريخه وخصائصه (بغداد - 1965)، ص 180 - 183.